التوجيه الصوفي للخطاب القرآني عند المفسرين الجزائريين

طالب الدكتوراه: بلحاج جلول
جامعة تلمسان
Djelloulogbi46@hotmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019/02/21	2019/02/25	2020/06/05

مُلَخّصُ البَحْث

يُعنى هذا المقال أساسا بعَرْض طريقة تناولِ بعض المفسرين الجزائريين قديما وحديثا لجملة من الحقائق القرآنية من جهة كونهم من أعلام الصوفية في زمانهم، أو كونِ عملِهم قد تضمن نصوصا أو صبغةً أو مصطلحاتٍ تنتمي إلى خطّ التصوف؛ الذي ظلَّ سائدا قرونا طويلة ههنا عموما بالمغرب وخصوصا بالجزائر. ولأجل هذا وغيره أتعرضُ لمن اختار شكلا من أشكال توجيه مدلول الآية أي بيانِ تنزيل حقائقها على طريقة التفسير الصوفي، كيف تعامل مع ظاهر التفسير أو المأثور الوارد فيه. هل توسع في مدلوله أو تجاوزَ ذلك إلى إحلال غيرِه محلَّه. ومن جهة أخرى هل جمعَ بين الظاهر والتأويل في تدوين التفسير أم اكتفى بذكر المعاني الإشارية بعد تسليم الظاهر.

وهو هنا أعمّ من أن يكون إشاريا لكون مقاديرَ منه ليست أكثرَ من لغة صوفية، وأخرى أخلاقا إسلامية وجدتْ أكثر ما تكون في كلام وتآليف الصوفية، ومن ذلك ما هو إشاريٌ بحتٌ وقع ذكرُه مجردا عن التفسير بالظاهر. وأيضا أتعرض لمن أنكرَ هذا الشكلَ من التفسير؛ بل شطَبَ على خطّ التصوف نفسِه. دون أن أترك ما ينبغي ذكرُه من التدليل والتعليل للموقفين، وترجيح ما أراه راجحا من جهة منطق المعرفة أو الأمر الواقع.

<u>الكلمات المفتاحية</u>: التفسير، التصوف، الظاهر، التوسع، التأويل، القرآن، المدلول، المعاني.

Abstract

Sufi Treatment Of the Qur'anic facts in the Algerian interpreters. Learned: This research essentially means the way in which some of the Algerian interpreters have recently been approached for a sentence of Qur'anic facts from the point of being a Sufi flag in their time or the fact that their work has included texts, dye or terminology belonging to the line of mysticism, which has prevailed for centuries, generally here in Morocco and especially A in Algeria. For this and others, I am exposed to those who have opted for some form of the treatment of the verse, a statement to be downloaded on the Sufi interpretation method, how to deal with the apparent interpretation or the adage contained therein. Does it extend or exceed its meaning to replace it with another? On the other hand, it is a combination of the apparent and the interpretation of the codification or merely the indicative meanings after the apparent handover .

It is more general to be indicative of the fact that it is not more than a Sufi language, and other Islamic morals that are most often found in the words and authorship of Sufism, which is a purely ashkari that has just been mentioned as an abstract explanation. I would also be exposed to those who denied this form of interpretation; it was written off on the same line of mysticism. Without having to leave what is to be said of the pampering and the reasoning of the two positions, and the weight of what I see as a sense of knowledge or fait accompli .

Keywords: interpretation, Sufism, appearance, expansion, interpretation, Quran, meaning, meanings.

المقدمة

إن تفسير القرآن إضافة إلى أنه حاجة دينيةٌ لعموم المؤمنين يقتضيها حسنُ التدبر وسلامةُ التطبيق والاقتداء، فهو حاجة معرفية لكون القرآن الكريم وقع محورا لكثير من المعارف الشرعية واللغوية... وقد اجتهد المفسرون في بيان القرآن بعد الذي ثبتَ عندهم من جواز ذلك بشروطه، واتساعِ مجال القول في ذلك البيان؛ إذ كان ما وقع من التفسير عن النبي عليه السلام محدودا، تضمنت الصحيحَ منه وغيرَه كتبُ السنن والصحاح.

هذا وإن أشكال ذلك البيان قد تعددت بتوالي العصور، واختلاف مشارب المفسرين العلمية والتربوية، والذي يهمّ الباحثَ هنا هو ما وجد من تفاسير متصوفة أو نصوص صوفية في ضمن تفسير الآيات والسور؛ بل إن بعضها رافق التفسيرَ بالظاهر إلى نهايته كما هو عند الخروبي الطرابلسي، وبعضها الآخر اكتُفِي به عن ذكر ظاهر التفسير كما في عمل الأمير عبد القادر على ما يأتي بيانه بإذن الله.

موضوع المقال: ولما كنتُ قد وجدتُ هذا الشكلَ من التفسير قد عُرف في أعمال كثير من المفسرين الجزائريين ممن تفاسيرُهم معتمدَةٌ لدى قارئ التفسير عموما، وكنت قد وجدت تناولَ حقائق الآية القرآنية أي طريقةَ عرضها وصبغها أو تضمين بيانها بعضَ اصطلاحات التصوف، وأن ذلك يكون على أشكال مختلفة منها مجردُ استعمال اللغة الصوفية، أو إرداف التفسير بالظاهر ببعض المعاني الإشارية مما له بهذا الظاهر وجه مناسبة، أو مجرد

التركيز على الأخلاق الإسلامية التي يُتوسع فيها عادة في كتب التصوف، وأيضا تَرْكُ الظاهر مع التسليم به إلى المعاني الإشارية التي قد يحتاج في إدارك مناسبتها لظاهر الآية إلى شكل من التدقيق وإعمال الفكر بتعبير القدماء. وكلّ هذا وجد في تفاسير امتدت من القرن التاسع الهجري إلى القرن الخامس عشر منه.

يوجد في تفسير القرآن الكريم ألوانٌ شتى من البيان فمرَّة يكون ذلك بالمأثور وما يدلُّ عليه ظاهرُ النص الشريف، ويكون أخرى بالتوسع فيما جاء به المأثورُ ومدلولُ الظاهر، ويكون ثالثا بتجاوز المأثور والظاهر معا. فمن الأول مثلا تفسيرُ قوله تعالى (غيرِ المغضوبِ عليهم والضَّالّين)[سورة الفاتحة: 07] باليهود والنصارى، ومن الثاني التوسع في مدلول الغضب والضلال ليشملَ من انطبقَ عليه ذلك ولو كان من الأمة المحمدية نفسها، وكتفسير بعض أئمة التصوف (أن تذبحوا بقرة)[سورة البقرة:67] البقرة بالنفس، وما هو مطلوب من التشديد والمخالفة عليها. ومن الثالث ما في تفاسير الباطنية من البرهان على رجعة الأئمة آخرَ الزمان، والتمكين من أعدائهم تحريفا لقوله تعالى (الذينَ إنْ مكنّاهم في الارض أقامُوا الصلاة) [سورة الحج:41]، وقوله (ربَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)[سورة غافر: 11]، مما هو من قبيل أساطير الأولين.

والذي يهمّ الباحثَ هنا بخصوص المفسرين الجزائريين هو ما ينتمي إلى الشكل الثاني، فقد وجد في تراثهم مجموعاتٌ من منتَج التفسير، منه ما قام على أساسِ أن تُتبَعَ فيه الآياتُ بإشارات التصوف، ومنه ما تضمن بحوثا لموضوعات صوفية. وتختلف طبيعة المعالجة المشار إليها بين مجموعة وأخرى، فهي عند الثعالبي والسنوسي مثلا تستوفي الظاهرَ من التفسير، وتَصبغ بعضَ الأوامر والنواهي بصبغة روحية كما سأعرضها في النماذج المختارة. حيث يكتفي المفسر فيها غالبا بنقل كلام مشايخ الطريق كالجنيد والغزالي...ويعود من جهة المصادر إلى مثل رسالة القشيري، والإحياء للغزالي والحكَم ولطائف المنن لابن عطاء الله بشرح ابن عبّاد وغير ذلك...

بينما نجد عند المجموعة الثانية شكلا آخر يذكر فيه إلى جانب التفسير الظاهر ما تشير إليه الآية من المباحث الصوفية ذات الطبع العملي أو التأمل الفلسفي كما هو عند الخروبي الطرابلسي في الأول، ومصطفى العلوي في الثاني، وهو أكثر ما يكون عند الأمير عبد القادر في **المواقف** حيث تجدُه يقتصرُ على تناول مضمون الآية من جهة المعاني الروحية والفلسفية دون أن يكون في ذلك تعرضٌ للظاهر ولا مناقضةٌ لمعانيه.

أولا: التفسير الإشاري:

أ – تعريف التفسير الإشاري: وأريد هنا وقبل أن أعرض لنماذج من التفسير الصوفي في تفاسير الجزائريين، أن أتطرقَ إلى التفسير الإشاري من جهة تعريفه وموقف العلماء منه. فقد عُرف هذا الفنُّ من التفسير في وقت مبكر في التراث الإسلامي، ولم تستقر بشأنه الآراء، فهو من جهة التعريف: **تأويلُ القرآن بغير ظاهره؛ لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمعُ بينها وبين الظاهر والمراد أيضا.**

وأقتصر على هذا التعريف لوضوحه وكفايته لما أنا بصدده. فالتفسير الإشاري على هذا إذن هو صرفٌ للآية عما تفيده من المعاني الظاهرة، وإن مبرر ذلك الصرفِ هو وجودُ إشارة خاصة في نص الآية، ولا تظهر تلك الإشارة من جهة أخرى لغير قوم خاصّين نعتُهم أنهم " من أرباب السلوك وعلماء التصوف."، ثم هو من جهة

أخرى صرفٌ لا يستلزم دائما منافاةَ المعنى الظاهرَ للآية؛ بل مهما بدتْ بينهما المنافاةُ وجبَ الجمع بين المعنى الظاهر والإشاري. وهو أمرٌ ممكن وقد حصل فعلا على رأي من يقول بالتفسير الإشاري.

ب – آراء العلماء في التفسير الإشاري: كما أنه من المهمّ بعد التعريف السابق أن أستعرضَ بإيجاز آراء العلماء في هذا اللون من التفسير، إذ كان منهم من أجازه ومن ذلك ما وجد فعلا حتى في إنتاج المفسرين الجزائريين، علما أنهم من أشدَّ الفئات تحفظا من الوقوع في البدع العلْمية على الأقلّ، ومنهم من منعه وحملَ على القائلين به يحذرُ من تفاسيرهم عبر التاريخ. وإليك أيها القارئ العزيز شيئا من أقوال العلماء مسندة إلى مصادرها لتعرف وجه الصواب في ذلك:

– **كلام ابن الصلاح:** بينما نرى ابنَ الصلاح (01) في فتاويه أكثرَ وضوحا، بحيث ذكرَ مثالا للمفسِّر بالإشارة، ونصّ على المصدر؛ بل أنت تراه قد أصدر حكما عقّب به على الحكم الغليظ الذي أصدره الإمامُ الواحدي المفسّر الكبير المعروف. فقد قال ابن الصلاح ما نصّه:" وجدتُ عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسّر، أنه قال: صنَّف أبو عبد الرحمن السُّلَمي (02) (حقائق في التفسير)، فإن كان قد اعتقدَ أن ذلك تفسيرٌ فقد كفرَ. قال ابنُ الصلاح: وأنا أقول: الظنُّ بمن يوثقُ به منهم إذا قال شيئا من ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهبَ الشرح للكلمة؛ فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلكَ الباطنية (03)؛ وإنما ذلك منهم تنظيرٌ لما ورد به القرآن؛ فإن النظيرَ يُذكرُ بالنظير، ومع ذلك فيا ليتَهم لم يتساهلوا بمثل ذلك؛ لما فيه من الإبهام والالتباس." (04).

وهذا النص الدقيق فيما يبدو للباحث يشير إلى الخلاف العنيف في شأن ما عُرف من التفسير بالإشاري، وكيف أن المتقدمين لم يتسامحوا بخصوصه، إذ كان حديثَ عهد بالظهور كما يظهر من تسمية بعض الذاهبين إليه وهو هنا أبو عبد الرحمان السلمي، وعبارة الواحدي تعكس ذلك الرفض الشديد، والواحدي هنا يمثل خطا متوقعا في الشطب على هذا اللون.

– **كلام عبد العظيم الزرقاني من المعاصرين** (05): وممن خاض في التفسير وتعرض للاتجاهات الواقعة فيه الزرقاني في مناهل العرفان. نورد منه النصَّ التالي ففيه ما يضبط التفسيرَ الإشاري أن يخرج إلى التفسير الباطني، فقد قال: " ومن هنا يُعلم الفرقُ بين تفسير الصوفية المسمّى بالتفسير الإشاري، وبين تفسير الباطنية الملاحدة؛ فالصوفية لا يمنَعون إرادةَ الظاهر بل يحضُّون عليه ويقولون لا بد منه أولا؛ إذ من ادعى فهمَ أسرار القرآن، ولم يحْكِم الظاهرَ كمن ادعى بلوغَ سطح البيت قبل أن يجاوزَ الباب. وأما الباطنية فإنهم يقولون: إن الظاهر غيرُ مراد أصلا، وإنما المرادُ الباطن وقصدُهم نفيَ الشريعة."(06).

وعلى خلاف مفسري الإباضية نجد مفسري أهل السنة يدرجون كلامَ الصوفية في كثير من المواضع من تفاسيرهم. وهذا اللون من التفسير الصوفي مختلف بين تفسيرٍ هو أشبهُ ما يكون بالتوجيهات الأخلاقية، كما هو عند الثعالبي والسنوسي والخروبي إلى حد ما، وتفسير فلسفي يضيف إلى الظاهر ما لا يُلغيه؛ بل يتوسع في مدلول الظاهر بأحد أنواع الإشارة المتضمنة، كما هو عند الأمير عبد القادر في المواقف، ومصطفى العلوي في البحر المسجور...، ومن قبلهم أحمد التجاني.

– **تأخر ظهور التفسير الصوفي في تفاسير الجزائريين:** تأخر ظهورُ التناول الصوفي للآيات القرآنية بمقدار تأخر ظهورِ خطّ التصوف نفسِه، والذي يهمّ الباحثَ هنا هو ما يتعلق بخصوص المفسرين الجزائريين مما وجد في تراثهم كمجموعات من منتَج التفسير؛ ذلك أنّ منه ما قد قام على أساس أن يُتبع بيانُ وتفسير الآيات القرآنية بإشارات التصوف، ومنه ما تضمن بحوثا لموضوعات صوفية عولجت في التفسير نفسه. وتختلف طبيعة المعالجة المشار إليها بين مجموعة وأخرى، فهي عند الثعالبي والسنوسي مثلا تستوفي الظاهرَ من التفسير، وتصبغ بعض الأوامر والنواهي بصبغة روحية. بينما نجد عند المجموعة الثانية شكلا آخر يُذكر فيه إلى جانب التفسير الظاهر ما تشير إليه الآيةُ من المباحث الصوفية ذات الطابع العملي أو التأمل الفلسفي كما هو عند الخروبي الطرابلسي و**كتاب المواقف للأمير**. وإذا كان مجموع منْ قدمتُ يلتزمون ذكرَ ظاهرِ ما تفيده ألفاظُ الآية وهم – بعد تسليم هذا الظاهر– إنما يبنونَ عليه من جهة التوسع فيما يفيده من المعاني. وإن كان ذلك التوسع يكون أحيانا غيرَ ذي علاقة واضحة كما يوجد في كلام الشيخ العلوي، فإنّ الأمير عبد القادر لا يلتزم في تفسيره ذكر ما قيل في الآية من جهة الظاهر بل هو بعد تسليمه في الجملة، يهتمّ باستيفاء ما تشير إليه من المعاني بالمصطلح الصوفي...

– **التفسير الصوفي عند الثعالبي (875هـ):** وأبدأ بالشيخ الثعالبي (07) فإن منهجه وإن كان " منهجا تحقيقيا في أساسه وطابِعه العام فإنه لم يخلُ من طابع صوفي واضح، إذ كان هو نفسُه صوفيا سنيا لا يذهب مذهبَ الحلول والغوص في مذهب وحدة الوجود."(08).

وأمثل للثعالبي خصوصا على صور عدة منها ما يَحكي فيه عند تفسير الآيات أقوالَ بعضِ مشايخ التصوف قد يسميهم وربما ترك التسمية إلى نعتِ السلوك كقوله: بعض الصالحين. وأحيانا ينقل من مصادر معتمدة في التصوف كالإحياء وغيره... فهو عند تفسيره لقوله تعالى (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) [26 سورة الطور]: يورد حديثا، ويثني على ذلك بنقل ما يشرح مضمونه من كلام أئمة التصوف كالغزالي وغيره: " وفي صحيح مسلم أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إنَّ في الجَنَّةَ لَسُوقاً يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمْعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو في وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، وَيَزْدَادُونَ حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: واللَّهِ، لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ واللَّهِ، لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً. "انتهى. وقد أشار الغَزَّاليُّ وغيره إلى طَرَفٍ من هذا المعنى، لَمَّا تكلَّم على رؤية العارفين للَّه سبحانه في الآخرة، قال بعد كلام له: ولا يَبْعُدُ أَنْ تكونَ ألطافُ الكشف والنظر في الآخرة متواليةً إلى غير نهاية، فلا يزالُ النعيمُ واللَّذَّةُ متزايداً أبَدَ الآبادِ، وللشيخ أبي الحسن الشاذلي (09) هنا كلام حسنٌ قال: لو كُشِفَ عن نور المؤمن لعُبد من دون اللَّه، ولو كُشِفَ عن نور المؤمن العاصي لطبق السماء والأرض، فكيف بنور المؤمن المطيع! نقل كلامه هذا ابن عطاء اللَّه وابن عَبَّاد (10).انظره."(11). ومَن ذكرهم الثعالبي في هذا النص بالخصوص هم أئمّة الصوفية، وقد سلّم كلامَهم وهم أهل لذلك، تدعمه عموم أدلة ثواب التوحيد والعبادة.

ومن ذلك أيضا ما قد قاله عند تفسير قوله تعالى (ليسُوا سواءً)[سورة آل عمران: 173] بعد أن تكلّم على قيام الليل، وأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان من كلّ الأمة كلَّ الليل : وهكذا كان صدرُ هذه الأمة، وعَرف الناسُ القيامَ في أول الثلث الآخر من الليل، أو قبله بشيء، وحينئذ كان يقوم الأكثر. والقيام طولَ الليل قليل، وقد كان

في الصالحين من يفعله."(12). وقال في موضع آخر من تفسير هذه الآية: " وذكر بعضُ الناس قال: " ودخلتُ مع بعض الصالحين في مركب. فقلتُ له: ما تقول أصلحك اللهُ في الصوم في السفر؟ فقال لي: إنها المبادرةُ يا ابنَ الأخ. قال المحدثُ: فجاءني والله بجواب ليس من أجوبه الفقهاء."(13). يقصد والله أعلم أنه وإن كان الفطر في السفر رخصة بتعبير الفقهاء إلا أن العزم والمبادرة إلى الخيرات قبل حصول الفوات يقتضي صومَه ولو مع قيام داعي رخصة الإفطار. والشاهد هو النقل عن من صفتهم أنهم صالحون، وأرباب مجاهدات وأحوال لا تتبعُ الرخص وإن كانت شرعية وهو أمر يلزمون به أنفسَهم لا غير.

وأحيانا يكون ذكرُ الكلام عاما فيه نفَسُ كلام الصوفية، والثعالبي منهم عند قوله تعالى (وما الحياةُ الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ)[سورة الأنعام: 32] ومثاله: " هذا ابتداءُ خبرٍ عن حال الدنيا، والمعنى أنها إذا كانت فانية لا طائلَ لها أشبهت اللهوَ واللعبَ الذي لا طائل له إذا تقضّى. وهذه الآية تقتضي الردّ على قولهم (إنْ هيَ إلا حياتُنا الدنيا) [سورة المومنون:37] وهو المقصود هنا. قال عبد الحق في **العاقبة**: اعلم رحمك الله أن حبّ الدنيا هو سبب طول الأمل، والإكبابَ عليها يمنع من الفكرةَ في الخروج عنها، والجهل بغوائلها يحمل على الإرادة لها والازدياد منها؛ لأن من أحبّ شيئا أحبّ الكونَ معه، ومن كان مشغوفا بالدنيا محبا لها قد خدعتُه بزخرفها وأمالتْه برونقها، كيف يحبّ مفارقَتها أو يحبُّ مزايلتها؟ هذا أمر لم تجر العادةُ له، ولا حُدّثنا عنه. بل نجد من كان على هذه الصفة أعمى عن طريق الخير، أصمّ عن داعي الرشد أفِنَ الرأي سيّءَ النظر، ضعيفَ الإيمان. لم تترك له الدنيا ما يسمعُ به، ولا ما يرى؛ إنما دينه وشغله وحديثه دنياه، لها ينظر ولها يسمع، قد ملأت عينَه وقلبه. ثم قال: واعلم أن أهل القبور إنما يندمون على ما يتركون، ويفرحون بما يقدّمون؛ فما عليه أهل القبور يندمون، أهل الدنيا عليه يقتتلون." (14) انتهى. وهو قليل مما يسمح به التوسع في مدلول الآية وكون الدنيا لعبا ولهوا.

– **التفسير الصوفي عند السنوسي (995هـ)**: إن توجه السَّنوسيّ الصوفي ليس بدّعا بين أقرانه وأهل زمانه العلماءِ منهم وغيرهم؛ ولأجل ذلك لا يفوتُه خصوصا وهو يفسر أن يستفيد المعانيَ الصوفيةَ من ذلك، عن طريق ربط الألفاظ القرآنية بمعانيها الروحية المتضمنة لها، كقوله عند تفسير قوله تعالى (إياك نعبدُ وإياك نستعين)[سورة الفاتحة:05] بعد ذكر الدين وأنه لله تعالى: " أرشدهم سبحانه هنا بفضله إلى ما يتقربون به إليه، وينالون به النجاةَ والنعيم السرمديَّ لديه في يوم الدين، وهو التوجه إليه تبارك وتعالى وحده بالعبادة، وهي امتثال الأوامر والنواهي على سبيل كمال الذلّ والخضوع. ولما كان العبادُ – مغمورين بالعجز والجهل وكثرة الملل وغلبة الهوى – هدفا لما لا يحصى من الموانع والقواطع أرشد سبحانه بمحض فضله إلى ما يتحصن به العبادُ من ذلك وهو الاستعانة به جلّ وعلا واستمطار الهداية منه تبارك وتعالى."(15). وهو كلام طيب يوافق مقصود الآية.

وفيما يلي نصٌّ آخر وهو على طوله يتضمن بعضَ كلام الصوفية، وما يتداولونه من معانٍ يستعان بها في فهم الآية، وتُقرَن بظاهر التفسير بل هي من دواعيه، وتفصيلٌ لمراميه عن طريق استحضار معان أخرى مستفادةٍ من آيات مختلفة ونصوص شرعية مماثلة: " ويوم الدين كلّ واحد يومُ موته، إذ من مات قامتْ قيامته، ولعلّ هذا اليوم قد آن نزولُه وإن تأخر، فهو قريب جدا فطاشت عقولهم عند هذا التأمل وتضعضعت أركانهم ونزَف منهم الدم، ورفضوا التعلقَ بما لا حاصل له من الشهوات الفانية، وبحثوا على ما يستعدون لهذا اليوم قبل نزوله، وتحيروا

في ذلك فإذا هم قد قرعَ أسماعَهم إثر ذلك قولُه تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فعرفوا أنه لا نجاةَ من هول ذلك اليوم ولا سعادة فيه إلا بالتعلّق بأذيال المولى العظيم تبارك وتعالى والاستعانة به، وطلبِ الهداية منه جلّ وعلا على الدوام؛ فبحثوا على معرفة تكاليفه ووجوه عبادته تعالى التي أوصلها إلينا على لسان رسوله الصادق المصدوق سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، فوجدوا فيها الواجبَ والمندوب والمحرم والمكروه والمباح فنبذوا المحرّم والمكروه، إذ العبادة في تركهما لا في فعلهما، وكذا رفضوا المباح الموصِل إليهما إذ للسبب حكم المسبَّب، وتعلقوا بالواجب والمندوب إذ فيهما عبادة المولى العظيم. ثم نظروا المباح المأمونَ فتركوا منه ما لا يَعني ولا يُضطرُّ إليه؛ لعدم العبادة فيه وعدم توقف العبادة عليه، وفي تعاطيه مشغلة عن تعاطي أسباب الفلاح والنجاح في مَجازاتِ العمر القصيرة، وتمسكوا منه بالضروري الذي يستعان به على عبادة المولى تبارك وتعالى؛ ناوين على تعاطيه التقوي على العبادة لا غير. وكلما حصل لهم من خير لم يروا المنّة فيها إلا للمولى العظيم إذ لا استعانة إلا به، ولا هداية إلا منه جلّ وعلا فصبروا على هذا الأمر الشريف قليلا في هذه اللحظة اليسيرة من العمر، وفازوا كثيرا وسَعِدوا إثرَ الموت سعادةً لا منتهى له."(16). وأكتفي هنا بهذا التمثيل المحدود تحت هذا العنصر ومن أراد الاستزادة فليطالعْها في محالّها من تفسيره.

– **التفسير الصوفي عند الخروبي (963هـ)**: وأنقل هنا نصا لبعض الباحثين عن التفسير الصوفي عند الخروبي الطرابلسي(17)، إذ كان المراد الإشارة لا استيفاء التفسير الصوفي عنده؛ فالواجب عنده أن المفسرَ " يتحرى في التفسير مطابقة المفسَّر، وأن يتحرّزَ في ذلك من نقص عما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليقُ بالغرض، ومن كون المفسّر فيه زيغٌ عن المعنى، وعدولٌ عن طريقه، ومراعاةِ المعنى الحقيقي والمجازي إلى غير ذلك."(18). ومن الإشارات الصوفية ما يقوله عند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى (وإنّ يونسَ لمن المرسلين) [الصافات:139]، تجده يقول: أيها العبدُ اجعل دارَ دنياك كبطن حوتِ يونسَ له، فلا تنسى فيها ذكرَ مولاك لعلّه أن ينقذَك من سجن هواك."(19). وهذه من القيود التي تشير إلى المنهج المتبع في هذا الشكل من التفسير، وهو يُجمل ما أشرنا ونشير إليه مرارا. والعبارة ورد ذكرها على لسان السيوطي، وورد تطبيقها عند الخروبي فيما نحن بصدده من التمثيل له من كتابه.

وأضيف ما يلي من تفسير الخروبي عند قوله تعالى (نزلَ به الروحُ الأمينُ على قلبك لتكون من المنذرين)[سورة الشعراء:194]، فقد قال ما نصّه: " قلتُ: وإنما خُصَّ القلبُ بالذكر لأنه خُصّ بالتنزيل، وإنما خُصّ به لأنه خزانة الحق تعالى فهو حاوي الأسرار ومنبعُ العلوم والأنوار، ومعدنُ الحقائق اللطيفة والأسرار الشريفة، ومحلُّ التجلّي العظيم ومهبطُ النور الأتم الكريم، وهو الملِك المطاع والقطبُ الذي إليه منتهى سَمْتُ الارتفاع، وعليه مدار العوالم الإنسانية والأكوان النورانية. وهو غيبٌ والمنزول من الغيب، فالمناسبة أوجبتْ له التخصيصَ بأن يكون مهبطا للعلوم. وكيف لا وهو محلُّ تجلّي الحي القيوم؛ أورثه العلم بالمتجلي فكان هو العالِم بالله والعامل له، والسائر إليه، والمشاهد إليه، والمقرّب منه، والمكاشِف لما عنده."(20). وفي هذا النص زيادة على ما فيه من معهود كلام الصوفية ومخصوص كلامهم: العوالم والأنوار والأسرار والتجلي والسير والمشاهدة والمكاشفة...

– **التفسير الصوفي عند التجاني (1815م):** وأذكر هنا ما للتجاني (21) من ذلك فقد ذكر بعضُ تلامذته" وسألتُه رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى (ويحذركم الله نفسَه) [سورة آل عمران:28]. فأجاب رضي الله عنه بقوله: أما في بساط الشريعة يعني (ويحذركم الله نفسه) بالخوف منه وعدم الأمن من مكره في جميع عطاياه من النعم، ودفع جميع المضارّ عنكم من النقم، وبسَط ذلك عليكم على ممرّ الليالي والأيام. فاحذروا من مكره في ذلك الحال فإنه لا يأمنُ مكرَ الله إلا من حقّ عليه عذاب ذي الجلال. وأما في بساط الحقيقة (ويحذركم الله نفسه) يعني من البحث والاطلاع والكلَب على كنه الذات؛ فإن ذلك غيرُ لائق بكم لا تطيقون ذلك الأمر. فاحذروا من حلول نزول البلايا بكم بطلبكم ذلك الأمر وقِفُوا عند ما حدّ لكم من أمر الشارع صلى الله عليه وسلم." (22). فهو يفرق بين بساط الشريعة وما يعتمده من الظاهر، وبساط الحقيقة وما يبني عليه من الإشارة. والملاحظ أن سياق الآية لا يفيد المعنى الأخير من التحذير من البحث عن كنه الذات الإلهية إلا بتوسع كثير، ولا يظهر وجه الانتقال إليه من ظاهر الآية وسياقها. والتفريق بين البساطين مخصوص بالصوفية كما هو معلوم.

وفي موضع آخر يتكلم التجاني عن نوعين من الأسماء ما هو داخل الكون منها وما هو خارج عنه، وأن ما هو خارجٌ عن الكون منها غير منضبط بحدّ ولا تمكن الإحاطةُ به، وهو المجال الذي تتفاوت فيه رتبُ العارفين والأقطاب... كما هي عبارته عند الآية (وعلّم آدمَ الأسماء كلَّها)[سورة البقرة: 31] " اعلم أن الأسماء التي علمها الله لآدم هي الأسماء التي يطلبها الكَوْن، والكلية المذكورة فيها هو إحاطته بجميع متعلقات الكون، حتى لا يشذَّ عليها منها شيءٌ؛ يشهد بهذا قوله سبحانه وتعالى في كلّية الأسماء حيث عرض صورة الكائنات على الملائكة وقال: (أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين) فدلّت هذه الآيةُ على أنها الأسماء التي يطلبها في الكون بدليل قوله (أسماء هؤلاء) وهي صور الأكوان. وأما الأسماءُ الخارجة على الكون فلا تمكن الإحاطة بها ولا نهايةَ لها. قال سبحانه تعالى (ولا يحيطون بشيءٍ من علمه)[سورة البقرة:255]، فإن العارفين والأقطاب والنبيين والمرسلين مع فتحهم في المعرفة ينكشف لهم في كلّ مقدار طَرْفة عين من أسماء الله الباطنة أمرٌ لا حدّ له ثم يبقَون على هذا الحال أبدا سرمدا في طول عمر القيامة، وفي طول عمر الأبد في الجنة بلا نهاية في كلّ مقدار طرفة عين ينكشف بهم من أسماء الله الباطنة ما لا حدّ له ولا غاية في طول هذه المدة. ولا نهاية لانكشاف الأسماء على طول أبد الأبد؛ فكيف يقالُ: أحاط بها كلها وإنما الكلية في الأسماء التي يطلبها الكون فقط."(23). وفي كلامه زيادة على ما هو واضح: الأقطاب والعارفون، والكشف، والفتح.

وما ذكره أخيرا من أن معرفة الأسماء التي هي خارج الكون دائمة التجدد لدى العارف، وأن ذلك ممتد إلى القيامة بل إلى الجنة وإلى الأبد بكلمة أخرى لا يسلّمه من لا يسلّمُ لهم خصوصية الذوق، وسلامة القصد. فهو لم يذكر له نصا من كتاب أو سنة بغض النظر عن صحته الشرعية؛ إذ التفسير مداره على النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين أو معاني اللغة، أوما لحق بها من قريب.

– **التفسير الصوفي عند الشيخ أحمد ابن عليوة (1934م):** وبالانتقال إلى الشيخ بن عليوة (24)، وهو مفسر معاصر يؤكد على عادة ما هو مقرر عند الصوفية من العودة كلَّ مرة إلى ادعاء الرمزية في الحروف والأسماء والأعداد؛ فالحرف الواحد وخصوصا **الباء** من البسملة متضمن لكل القرآن فهو يقول: " فاتضح من هذا أن الحرف

بانفراده قرآنٌ بالنظر لما اشتمل عليه من المعاني، وفي رواية: لا أقول (ألم) حرف بل ألف حرف، واللام حرف، والميم حرف."؛ ولهذا ورد أنَّ ما في الكتاب في الفاتحة، وما في الفاتحة في بسم الله الرحمان الرحيم. وورد أيضا أن ما في البسملة في بائها، وما في الباء في النقطة التي تحتَها. وقد كنت جمعتُ رسالةً فيما يتعلق بهذا المعنى."(25). وهو مناقش في كون مطلق الحرف في القرآن له معنى؛ إذ حروف المعاني في لسان العرب معدودة، وما ذكره من الروايات حول باء البسملة في ثبوتها كلام كثير للأئمة معروف في محلّه. ومع ذلك فهذا من التفسير الصوفي ممن مقامه الديني في الجملة معروف.

وحول علوم القرآن وما تضمنته آياته من المعارف يذكر بالمناسبة العامة أن علومه لا حدّ لها، وأن الظاهرَ وما يفيده من ذلك قليلٌ نسبةً إلى ما ينكشف للناظرين إلى بواطن المعاني وما تفيده الآيات بالإشارة، فهو يقرر:" الفصل الثالث: فيما يدلُّ على أن في القرآن علوما ليست متعاطية فيما بين العموم: ولعلّ المتجمد على الظواهر لا يرى من كتاب الله إلا ما وصل إليه من جهة بضاعته القليلة، وقريحته الكليلة، وينكر ما وراء ذلك. ولم يعلم أن ما عرفه من ظاهر الكتاب إلا كمن عرف القِشرَ من اللباب. وما وراء ذلك ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر."(26). وليس فيما قاله قدح لما يفيده الظاهر من جهة المصداقية والكفاية لعموم المتعبدين، وما به صلاح حالهم في الجملة؛ لكن الخاصة من الناظرين في معانيه يستفيدون من تكرار النظر عبر الزمان ما لم يفتح به على غيرهم ممن تقدم. وهو معنى أشار إليه المتقدمون، ويظهر عبر التفاسير عبر القرون على الأقل من جهة حقائق الطب والفلك والتاريخ...

وليقين المفسر من اتساع بحر معارف القرآن فهو يتكلم عنها كلام الخبير بها، ويعطي بالنّسبِ مقدارَ المعاني المحصلة له ولغيره كما يفيده قوله بالنص:" ولا تحسبنّ ما رسمته هو مجموع ما فهمتُه بل ولا عُشرُه، ومصداقه: القرآنُ لا تنقضي عجائبه."(27).

ومن قرأ هذا التفسيرَ وغيره مما يشبهه من تفاسير الصوفية يدركُ مقدارَ ما كان يعانيه المفسرُ من توقع الإنكار والتخطئة من مخالفيه، وهو أمر يفتح باب الدعوى العريضة لدى المفسر نفسه، إذ تراه ينصح مطالعي تفسيره بالتدرج في المطالعة واستيفاء ما رتبه من فصول" فمن أراد السلامة أن لا يشرع في هذا التفسير حتى يمرّ على فصوله حسب ترتيبها؛ لأنها كالسلم لتلقي أسراره، وليتذرعْ بحسن الظن ما أمكنه، ولا يقسْ ما يجد فيه على ما عنده، فإنه أبعدُ من التطابق؛ لأن كلام الروح يباين كلام البدن، فأكثره جاء بلسان الخصوصية الذي ليس لنا فيه كبيرُ اكتساب إلا ما كان من قبيل التوجه والتلقي من حضرة الله."(28).

وقد بين طريقتَه في تناول الآيات، وأن ما يستفاد من جهة الإشارة يلي الظاهرَ المسلَّم، ثم يليه ما اختص به المفسر عن غيره ممن خاض في معاني الآية، أو تناولها من عموم المفسرين السابقين على اختلاف ألوان تفاسيرهم؛ فهو في هذا شديد الاعتداد بمواهبه، وذلك قوله: " ثم اعلم أنه ظهر لي في ترتيبه أن نذكر شيئا من التفسير الذي هو المقصود العامّ من كتاب الله، ثم نذكر ما يستنبط من أحكامه وهو أخص مما قبله، ثم نأتي بشيء مما توسع فيه الإشارة على مصطلح أهل الله، ثم نذكر كلاما أخصَّ منه معبرا عنه بلسان الروح وهي أنهار أربعة تراهم قد علم كلّ أناس مشربهم."(29) .

وأستعرض هنا ما ذكره الشيخُ العلوي تفسيرا للبسملة على الشكل الذي ارتضاه، وبالتدرج الذي سارَ عليه، فهو يتكلم عن سر الافتتاح بـ(بسم الله الرحمان الرجيم) بكلام واضح مسلّم في الجملة؛ فتحتَ عنوان " الكلام في بسم الله الرحمان الرحيم. أقول: أن افتتاح الكتاب العزيز بالبسملة لفظا وخطا فيه ما يشعرنا بلطف الله بعباده، وإنْ مع إعراضهم عنه، وذلك أن التالي أو القارئ لكتاب الله مهما يرسل طرفه ويحرك لسانه إلا ويلتصق بـ: بسم الله الرحمان الرحيم، فيكون ذاكرا للاسم متبركا به من حيث لا يشعر قصدَ أو لم يقصدْ حبَّ، أم كرِه بخلاف ما لو لم نؤمر برسمها لتشعبت المقاصد، واستحكمت الغفلاتُ فقد ينساها قويّ الإيمان، ويتعلل المنافق بالنسيان. ولما تعينت كتابةً وقراءة رفع الاحتمال."(30).

وأيضا عند بيان مشروعيتها قبل القراءة بالخصوص ينص على معان دارجة معروفة مضامينُها، وإن كانت صياغة تلك المعاني تختلف بين مفسر وآخر بل بين كاتب وآخر.. فهو يقول: " ثم إنَّ الحكمة في مشروعيتها عند كلّ فعل ذي بال يقضي برفع امتياز الجبابرة حتى لا يبقى جبروت لأحد على الآخر؛ لأن الأمم غير الإسلام كانت قديما وحديثا تتبرك بذكر ملوكها وأمرائها حتى إذا أراد أحدهم أن يتناول مشروبا مثلا يتناوله باسم الملك والأمير، وبالأخص إذا كان بحضرته. ولما جاء الإسلام بالتساوي بين أفراد الإنسان وأنْ لا فضلَ لأحد على أحد إلا بتقوى الله أمر الشارع أن لا يذكر اسم عند فعلٍ ذي بال إلا اسمُ الله إلا إذا كان الفعل غير مأذون فيه من جهة الشرع فجلَّ اسمُ الله أن يكون ذارِعة لفعله. والحكمة في ذلك لكونه تعالى لم يأذن فيه، فكأنه يقول لفاعله: أنا ما شرعتُه لك، ولا أذنتُ فيه، فأنت شرعتَه لنفسك، فافعله باسمك لا باسمي. فمن شرع شرعا نسُب إليه.". والالتصاق الذي ذكره للباء عادة المفسرين أن يذكروه معنى لغويا من جملة معاني هذا الحرف، زيادة على المصاحبة والتبعيض. غير أنه يزيد عليهم فيضيف الالتصاق إلى الذات الإلهية على اعتبار أن اسم (الله) هو عين مسماه: " ثم إن الباء في بسم الله الرحمان الرحيم جاءت للإلصاق فهي ملتصقة بالله لأن الاسم غيرُ فاصل بينهما؛ لكونه عين المسمى عند القوم وجمهور الأشاعرة فصار الابتداء بالله فمنه بدأ الأمر وإليه يعود." (31).

ويزيد بابَ الإشارة فتحا ليستفيد من استطالة حرف الباء في (بسم الله)، وهو شيء تابعٌ لرسم القرآن، دلالة لا شك فيها على الأقل عنده من أن الملتصق بالله – على المعنى المقرر – من أهل الله، صاحبُ درجة على غيره، وأن قيام الباء مقام الألف المحذوفة من اسم الجلالة (بسم) هو المخصوص بمقام الخليفة للميراث النبوي، وهو ما عبر عنه بالوارث المحمدي: " وأما استطالة الباء وخروجها عن مقتضى عادتها فليس ذلك لاتصالها بالاسم وخروجِها عن مقتضى عادتها، فليس ذلك إلا لاتصالها بالاسم، فالمتصلُ بالمسمى من أهل الله أولى بالارتفاع على أبناء جنسه. وأما نيابتُها عن الألف المحذوفة من الاسم فتُشير إلى نيابة الوارث المحمدي."(32). وواضح أن ما قرره تحت عنوان الإشارة لا يخصه، وقد لا يسلَّم له، لضعف تعلق المعاني المشار إليها بظاهر الآية، وما تفيده مباني ألفاظ الآية من الدلالات.

– **التفسير الصوفي عند عبد القادر الجزائري الأمير (1883م):** وإذا كان مجموع من قدمتُ يلتزمون ذكرَ ظاهر ما تفيده ألفاظ الآية وهم بعد تسليم هذا الظاهر يبنون عليه من جهة التوسع فيما يفيده من المعاني – وإن كان ذلك التوسع يكون غير ذي علاقة واضحة كما قدمنا قريبا عند الشيخ العلوي – فإن الأمير عبد القادر (33)، لا

يلتزم في تفسيره ذكر ما قيل في الآية من جهة الظاهر بل هو بعد تسليمه في الجملة يهتمّ باستيفاء ما تشير إليه من المعاني بالمصطلح الصوفي، ففي تفسير قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالَهم)[سورة النساء: 02] يقول:" اليتيمُ هو من عَرف منه أستاذُه بالفراسة النورانية الاستعدادَ والقابلية، وأنه يكون منه رجلٌ فيما يأتي من قولهم: درّة يتيمة: أي ثمينة لها بالٌ وقيمة. وكلّ من ادخر له أبوه العقلَ الكليّ كنزا في استعداده، مخبأً تحت جدار جسمه فهو يتيم. أعني فاضلٌ بالنسبة إلى ما دونه." (34). وإذا كان هذا الكلام مسلما عند أهله بالمعنى الذي يتداولونه، وبالمصطلح الذي يتعارفونه فإنه من الصعب ردّه إلى الظاهر إلا أن يقال أن الجامع بين المعنيين في اليتم شدة الحاجة إلى ما يقوم به دين ودنيا الشخص، وقيام كلّ من الوالد البيولوجي وشيخ التربية الذي هو أبٌ بالمعنى المجازي مقام من يكفي اليتيمَ تلك الحاجة.

وفي موضع آخر أكثر وضوحا نجد الأميرَ عبد القادر يُوغل في الإشارة ويبالغ في التوسع، وحملِ الألفاظ عل المعاني البعيدة. فإذا كان الحمار في قصة لقمان معلومَ الدلالة ظاهرَها، والكلام مسوقٌ في الأصل لصوت الحمار لا لعقله، فإن حملَ الحمار وما عطف عليه من الصوت على المريد يتكلم بالكلام الصوفي خصوصا في الجناب الإلهي بما لا يحسن له معنى، فينقلب ذلك عليه وعلى شيخه؛ لا يظهر هذا الحمْلُ سالما من الاعتراض لضعف الإشارة المعتمد عليها. ونص كلامه عند قوله تعالى(إنَّ أنكرَ الأصواتَ لصَوْتُ الحميرِ)[سورة لقمان:19]: " هو المريد يتكلم بالحقائق قبل إدراكه، أو أنّ الكلام والنهي الوارد في الآية هو للمشايخ الذين لهم أتباع مريدون، ربما وضعوا الأسرار في غير موضعها، أذاعوها لغير أهلها...وقد شاهدنا في زماننا من المريدين من سمع بعض أسرار الألوهية وبعض الحقائق من مشايخهم فصاروا يتكلمون بها في المجالس العامة، وظهرت منهم أمورٌ فظيعة من الجسارة والقباحة، والتهجم على الجناب الأعلى الإلهي، والتكلم بكلمات ما عرفوا لها أصلا، ولا ذاقوا لها طعما؛ بل نظنّ والعلم عند الله أن مشايخهم إنما تلقفوها من الكتب أو من غيرهم، وما ذاقوا لها طعما ولا عرفوا لها حقيقة؛ إذ لو عرفوا حقيقتَها لصانوها." (35). ولعل الجامع هنا هو الاستنكار من وضع الشيء في غير محله وفيه زيادة بشعة على محل الحاجة هذا إن وجدت حاجة أصلا.

ولبيان هذا اللون من المعالجة البيانية الصوفية للآيات الكريمة، وإن كانت كثيرة وظاهرة عند الأمير عبد القادر نسجلُ هنا أنه ليس وحده في ذلك، وأن الشيخ أحمد العلوي قد تكررَ له ذلك مع فارق أنه يذكر ما يفيده ظاهر الآية. ونحن ننقل هنا مثالا عنه، حول المناسبة بين النجم والنفس المحمدي في تفسير قوله تعالى (والنجم إذا هوى)[سورة النجم:01] " فأقول: أن المقسَمَ به كناية عن نور ثاقب، تنتهي فيه الأنوار، وتستمد منه البصائر والأبصار. ولا يصرف بهذا الاعتبار إلا النفس المحمدي والروح الأبدي، ولكل امرئ ما نوى، ولكل قلب ما حوى. قال الله تعالى (والنجم إذا هوى) والمناسبة أن نقول: وجه الشبه بين النجم والنفس المحمدي وجود الاهتداء في كل منهما زيادة على النور المتّحدِ فيهما. والمعنى أن النجم يُهتدى به بسبب هويّه وعروجِه، ولولا ذلك لما اهتدى به، فصار ميلُه وانتقاله من لوازم الاهتداء؛ فكذلك النفس المحمدي يهتدى به بسبب ميله عن مركزه الأسنى الذي هو التوجه والتلقي من الألوهية إلى ما لا بد منه من لوازم البشرية والأمور الاختصاصية، فيكون في ذلك أسوة واهتداء للمقتدي." (36). وهذا الذي ذكره من وجه المناسبة من المعاني المحتملة وشاهدها من المعاني العامة موجود؛

لكنه لا يحلُّ محلَّ الظاهر ولا يدانيه، ولا يلزَم من لم يسلمه وجها لتفسير الآية، وإن كان يسلمه من جهة شواهده العامة.

– **التفسير بالمعاني الصوفية عند ابن باديس (1940م):** وإنما نسبتُ ذلك إليه لأنه صوفي ذو طريقة لم ينكرْ هو شخصيا نسبتَه إليها فيما استقبل من أيامه، وإنما كان إنكارُه على ما دخل التصوفَ من البدع الشنيعة والروح السلبية حتى غدا التصوف وكثير من طرقه ورجالها عائقا في وجه كلّ حركة إصلاح اجتماعية، ووجد في ذلك الاستعمار ملاذا من أي فكر ديني يتزعم أصحابُه قيادةَ المجتمع أو يشاركون القادة الاجتماعيين بعبارة أدق. وأريد هنا أن أزيد موضوع البحث وضوحا بأن أنقل مواضع من تفسير ابن باديس (37)، وهو يحمل على القبوريين باعتبار كون تراثهم ينتمي كثيرٌ منه إلى الطرق الصوفية ومن ثم إلى خط التصوف عموما؛ فو يحمّلهم مسؤولية ما أصاب الأمة من الضلال الحاصل بسبب الترويج لأضرحة المشايخ وقبورهم، والأضرحة المقصودة بالدعاء والنذر المنهي عنه شرعا أشد النهي. فقد قال عند قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) [الإسراء: 56 –57]. " تطبيق: إذا علمتَ هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال: فتراهم يدْعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضرّ، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شيّدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدقّون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم، بأنهم خدامهم وأتباعم، فكيف يتركونهم؟؟ وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس [النذور]. وتراهم هنالك في ذلّ وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم!! فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلّها عبادة لأولئك المدعوين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشرع لا باعتبارهم. فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال."(38).

وما ذكره من مثل هذا السعي الباطل باتجاه سكان القبور كان شائعا ومتبعا بلا نكير عبر قرون طويلة، لم تمنع منه الآيات الصريحة، والأحاديث الصحيحة والعقائد الواضحة التي قررها علماء الإسلام، وحملوا فيها على صور الشرك الظاهر مما قد يصيب المجتمع المسلم. بل وجد من أشباه العلماء وأدعياء العلم من يدافع عنه مرة بالسكوت على العامة استرضاء لهم، وأخرى بالحمل على المنكرين له. وتكاد التفاسير وهو ما يهمّنا هنا أن تسكت عنه إلا قليلا باعتبار أنها جانبت قضايا الواقع في كثير من تفاصيله.

وليس معنى مجانبة المفسرين لمباحث التصوف التنكرَ لما صحّ من حقائقه، وسلِم من مضامينه؛ بل إنك لتجد معالجةً للآيات الكثيرة بنبرة أخلاقية مستمدة من الإسلام موافقة في كثير من مناحيها لتوجيهات التصوف السني ومشايخه؛ فهذا ابن باديس وهو بصدد بيان ما في القرآن من الأخلاق مع التحذير من خطه الأعجمي، وأبعاده الفلسفية فهو يقول: " وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارها، وبين السبيل للتخلّي عن هذه والتحلّي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بتَدْسيتها فهجرنا ذلك كلّه، ووضعنا

أوضاعا من عند أنفسنا، واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطُّع، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيل الفلسفي ما أبعدها غايةَ البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها." (39). ويرى القارئ أن هذا النص لابن باديس غير ما كنا عليه سابقا إذ هو يصحح التصوف بالقرآن وأوضاعه الشرعية، وفي نفس الوقت ينفي عنه ما زيد فيه باسمه من الأوضاع البائسة والأفكار البالية.

خاتمة:

يتبين مما مرّ وسبق عرضُه ولو بشكل موجز أن المفسرين الجزائريين قد عرفوا هذا اللونَ من التفسير، وأنهم أسوةً بغيرهم قد ضمَّنوا حقائقَ التصوف مباحثَ التفسير، وأنهم قد التزموا ترتيبَه بعد ما يفيده ظاهرُ الآيات، سواء من جهة اللفظ فهم يؤخرونه عنه، أو من جهة المعنى فهم يجعلونه كالتوسعة لما يفيده نص الآية دون أن يكون في ذلك أدنى معارضة بينهما، وأنهم قد اقتصروا أحيانا على ذكر المعنى الإشاري للعلم بالمعنى الظاهر وتسليم ما يفيده.

وهكذا واكب خط التفسير عند الجزائريين ما كان عند غيرهم عنيتُ أمثالَهم من مفسري المشرق الإسلامي من صيانة تفاسير الصوفية عن إغراقها بالمعاني الباطنية الرديئة، والمخالفة لظاهر الشريعة المقصود إلزامُ العباد بها علما وعملا. وهي تلك المعاني الفاسدة المقحمة تحت الألفاظ القرآنية الشريفة حين احتاجت إليها هذه الفرق لتبقى تحت مظلة الإسلام، والتي ابتدعتها في العقائد والأفكار والأذكار وصور العبادات مما لم تفده ظواهر الآيات بوجه من الوجوه، وحملها الواقع المستمرّ فيما يحمله السيل.

ويمكن تلخيص ما انتهى إليه المقال في أمور منها:

- اعتناء المفسرين الجزائريين قديما وحديثا بالتفسير الصوفي تأليفا وتدريسا.
- التزام المفسرين الجزائريين بظواهر النصوص الشريفة.
- اتباع منهج التوسع في مدلول الآيات بما لا يخالفها ولا ما يلغيها.
- الجمع في عرض التفسير غالبا بين الظاهر والإشارة و الجمع الدائم بين المعانى الظاهرة والمشار إليها وإن اكتفي بذكر الأخيرة في التدوين والتأليف كما هو عند الأمير عبد القادر في المواقف.

والحمد لله أولا وآخرا على ما مهّد من الإعانة ويسّر من التوفيق.

إحالات البحث

(1)- بلحاج جلول باحث في الدكتوراه جامعة أبو بكر بلقايد بتلمسان بالجزائر.

(2)- ابن الصلاح: عثمان بن عبد الرحمان ابن الصلاح، من كبار علماء الحديث والفقهاء اشتهر بعلوم الحديث اختصر فيه ما تقدم ووقع اعتماده بالتدريس والشرح والنظم والاختصار. راجع تراجم أعلام موسوعة الفقه الإسلامي 264/1.

(3) – محمد بن حسين بن محمد السلمي، من كبار متقدمي الصوفية والمتكلمين، ألف حقائق التفسير. توفي 412هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي 247/17.

(4) – **الباطنية**: فرقة تحكم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا. المعجم الفلسفي، عبد الرحمان مرحبا، دار الكتاب العربي، لبنان، 1982م، (ط01) 196/1.

(5) _ مناهل العرفان، المرجع نفسه. 2/ 79.

(6) – محمد بن عبدالعظيم الزرقاني من كبار علماء الأزهر الشريف في القرن الماضي. له كتاب: مناهل العرفان في علوم القرآن وقد خصص فيه للتفسير بابا نافعا. كثر به الانتفاع في الدراسات الحديثة. توفي 1367هـ. انظر في ترجمته الأعلام للزركلي 210/6.

(7) _ مناهل العرفان في علوم القرآن، المرجع السابق. 2/ 79.

(8) – عبد الرحمان بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي المالكي، (توفي 875هـ)، من كبار العلماء والمفسرين، ومن أعلام الصوفية السنية له زاوية مشهورة بالجزائر العاصمة. له تفسير الجواهر الحسان في التفسير... انظر شجرة النور الزكية (ص/265)، والضوء اللامع للسخاوي (152/4).

(9) _ التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، للطرهوني. 704/2.

(10) – علي بن عبد الله أبو الحسن الشاذلي المغربي، شيخ الطريقة الشاذلية المعروفة والتي هي أصل كثير من الطرق الصوفية بالمغرب الإسلامي. توفي الشاذلي متوجها إلى مكة 656هـ. ترجم له الذهبي في العبر 112/2.

(11) – ابن عباد الرندي من أتباع الطريقة الشاذلية ومن مشايخها، له شرحٌ على حكم ابن عطاء الله مشهور . الأعلام 345/1.

(12) _ تفسير الثعالبي 4/ 2.

(13) _ تفسير الثعالبي:360/1.

(14) _ تفسير الثعالبي:360/1.

(15) _ تفسير الثعالبي:617/1. نقلا عن كتاب العاقبة لعبد الحق الإشبيلي.

(16)- المواهب القدوسية، المصدر نفسه.

(17)- المواهب القدوسية، المصدر نفسه.

(18) – أبو عبد محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، له تآليف غالبها في التصوف. له تفسير كبير يجمع فيه بين الظاهر وكلام الصوفية وقد عثر عليه مؤخرا سماه: رياض الأزهار وكنز الأسرار، توفي سنة 963هـ. تعريف الخلف 490/2. الأعلام للمراكشي 129/5.

(19) _ الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي 198/4.

(20) _ راجع رسالة ماجستير عن تفسير الخروبي، نور مكاوي. ص:22، وراجع أيضا: الشيخ الخروبي وتفسيره: رياض الأزهار وكنز الأسرار: حياته ومنهجه مع تحقيق الجزء الأول من هذا التفسير، محمد حسين القذافي.

(21)- محمد بن علي الخروبي الطرابلسي (963هـ)، **رياض الأزهار وكنز الأسرار**، مخطوط لوحة 24 وجه 02.

(22)- أحمد بن محمد التجاني أبو العباس، مؤسس الطريقة التيجانية ومقدّمها. توفي بفاس 1230هـ/1815م. ذكر من ترجم له تفسير آيات محدودة جمع فيها بين الظاهر وكلام الصوفية منه أخذتُ ما تقدم من النصوص. تعريف الخلف لأبي القاسم الحفناوي 232/2.

(23) _ ابن حرازم (1214هـ)، **جواهر المعاني في مناقب أحمد التجاني**، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 2002م (ط1)، 127/1.

(24) _ جواهر المعاني 1/ 132.

(25)- أحمد بن مصطفى العلوي، وابن عليوة من أهل مستغانم ألف تفسير **البحرُ المسجور في تفسير القرآن بمحض النور**، كما له **لبابُ العلم في تفسير سورة النجم**، وله أيضا **تفسير سورة والعصر**. توفي رحمه الله عام **1934**م. معجم أعلام الجزائر 367.

(26)_ أحمد بن مصطفى بن عليوة (1934م) البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور، المكتبة العلوية، الجزائر، بدون تاريخ، ط01، ص 11/1.

(27) _ البحر المسجور، المصدر نفسه. 12/1.

(28) _ البحر المسجور 20/1.

(29) _ البحر المسجور، المرجع نفسه. 20/1.

(30) _ البحر المسجور، المرجع نفسه. 30/1.

(31) _ البحر المسجور، المرجع نفسه. 32/1.

(32) _ البحر المسجور، المرجع نفسه. 32/1.

(33) _ البحر المسجور، المرجع نفسه. 34/1.

(34) – عبد القادر الجزائري، له كتب عديدة والذي يهمّ هنا هو كتاب **المواقف**، وهو تفسير بالإشارة المحضة لمواطن كثيرة من القرآن، وقد طبع المواقف مرارا. للأمير عبد القادر سند متصل إلى مرتضى الزبيدي شارح القاموس.". توفي بدمشق **1883**م. معجم أعلام الجزائر 280.

(35) _ المواقف، للأمير عبد القادر. المصدر السابق. 394/1.

(36) _ المواقف، للأمير عبد القادر. 392/1.

(37) _ لباب العلم في سورة النجم، أحمد بن مصطفى العلاوي (المطبعة العلاوية – مستغانم- الجزائر. الطبعة الثالثة) ص/06.

(38)- عبد الحميد بن باديس... قام بتدريس تفسير القرآن بقسنطينة خمسا وعشرين سنة فختمه. له: **مجالس التذكير في التفسير**، وطبع ونشر بالجزائر. وطبعته دار الفكر باسم تفسير ابن باديس ...". [1]. توفي ابن باديس رحمه الله عام 1359هـ/1940م. معجم أعلام الجزائر: 28- 29.

(39) _ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس 119.

❋❋❋